

عبقرية المقاومة الإسلامية للتنصير القهري

محمد يوسف عدس

في مقالنا السابق عن التنصير القهري في روسيا القيصرية تحدثنا عن ظاهرة العودة الجماعية إلى الإسلام ، التي أذهلت الباحثين في تفسيرها .. وكيف تسنى للعائدين إلى الإسلام وهم من جماهير الشعب المسلم البسطاء أن يتحدثوا الطغيان القيصري -تارة بالإصرار المعلن وتارة بالحيلة والمداراة- في تنفيذ خططهم للعودة إلى الإسلام ؛ من خلال عمليات تعليمية دعوية منظمة ، وتغييرات اجتماعية مبرمجة ، مثيرة للعجب والاعجاب كلاهما .. وقلنا إن هذه الظاهرة الفريدة قد اجتذبت نظر الباحثة الأمريكية "أجنيس كيفلي" فأجرت عليها دراسة علمية [من واقع الوثائق المحفوظة ، واللقاءات مع أحفاد العائدين والخبراء وزارات المواقع التي جرت فيها أحداث العودة المثيرة في روسيا ، وخصوصاً قرية "إليشيفو" المسلمة .. في محاولة لاكتشاف العوامل التي تكمن وراء هذه الظاهرة ، وما تضمنته من تحديات وصراعات بين السلطات الروسية وبين المنتصرين المسلمين الذين كانوا يُعرفون في روسيا باسم الـ [كزياشين] العائدين إلى الإسلام .

كانت أول وثيقة لفتت نظر الباحثة عبارة عن رسالة مؤرخة في مايو ١٨٦٦م من أهالي قرية إليشيفو إلى السلطات الروسية يعلنون فيها اعتناقهم للإسلام بمحض إرادتهم وأنهم بذلك قد قطعوا صلّتهم نهائياً بالكنيسة الأرثوذكسية .. وكان يتزعم هذه الحركة رجل يسمى "بشير فاليتوف" اسمه المسيحي السابق "إفريم كيريليوف" وقد وقع الرسالة جميع أهالي القرية.

يبدو من دراسة أجنيس كيفلي أن العودة إلى الإسلام لم تحدث بين عشية وضحاها وإنما كانت عملية طويلة استوعب فيها سكان القرية العقيدة الإسلامية خلال جهود تعليمية واتصالات أسرية وشبكة ناجحة من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية المتميزة.

ونلاحظ في ثنايا ذلك كله حركة نشطة في تأليف ونشر عدد كبير من الكتب الدينية تداولها أهالي القرية فيما بينهم ، ومعنى هذا أنه كان يوجد حشد كبير من المعلومات والمعارف عن الإسلام عقيدةً وممارسةً هي التي ساعدت الناس على اتخاذ قرارهم النهائي بالعودة إلى الإسلام.

اشتملت هذه الكتب على قصص من القرآن ومن حياة النبي وأحاديثه، إلى جانب كتب تعليمية أخرى وضعها شيوخ مجاهدون ؛ بعضها في أطر شعرية كانت تُتلى على الناس إنشاداً في المدارس القرآنية وفي المنازل والاحتفالات العامة بالقرية ، هذه القصص والأناشيد الدينية دخلت إلى القرية مع قدوم دعاة متصوّفة من بلاد آسيا الوسطى واستقرارهم بين التتار المسلمين في منطقة الفولجا الوسطى.

كانت أقوى حركة صوفية قَدِمَتْ إلى هذه المنطقة هي حركة النقشبندية.. وهذه الحركات الصوفية هي التي لعبت الدور الرئيس في إسلام القبائل التترية .. عُرف الدعوة المتصوفون بمرونتهم فيما يتعلق بالعادات والتقاليد المحلية للسكان، بمعنى أنهم لم يكونوا يتصادمون مع هذه التقاليد بل وظّفوها في إطار إسلامي، بهذا الموقف وباستخدام اللغات المحلية في الدعوة استطاع المتصوفون إعادة الكرياشين إلى الإسلام.

وقد استخدموا لتحقيق هذا الهدف الكتاب والقراءة والإنشاد في الدعوة على أوسع نطاق، وكان لهذه الطريقة أبلغ الأثر في نفوس أهل قرية إيشيفو .. حتى أنهم جميعا كانوا يحفظون محتويات هذه الكتب عن ظهر قلب وينشُدونها في جماعات فيما سمي بـ"المناجاة".

هذه الطريقة ساعدت في نقل المعارف والأفكار والتقاليد الإسلامية إلى الفلاحين البسطاء، وكانت هذه الكتب تدور حول الموضوعات الرئيسية الآتية:

- ١- وحدانية الله ومجاهدة الوثنية والشرك.
- ٢- فضيلة العفو والمغفرة عن الآخرين.
- ٣- أهمية العلم والتعلم.
- ٤- المعجزات التي تمت على يد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.
- ٥- الإيمان بأن النصر النهائي للإسلام.

ولقد أصبحت القراءة في مجتمع المريدين من أهل القرية قيمة راقية يُنظر إليها باعتبارها وسيلة للتطهير النفسي، ولم يكن لدى شيوخ الصوفية أي تعصبات ضد المعرفة العلمية بل كانوا يشجعون تلاميذهم للتزود من المعرفة والتثقيف الذاتي عن طريق القراءة.

وكانت هذه الكتب تعكس نموذجين لحياة المسلم في عالم تسيطر عليه سلطة غير إسلامية:

يؤكد النموذج الأول على إمكانية التعايش والتعاون مع السلطات غير المسلمة، وكان المثل في ذلك قصة النبي يوسف عليه السلام الذي بدأ في مصر عبداً مملوكاً قبل أن يعمل في خدمة الملك الكافر وزيرا، وقد ارتقى إلى هذا المنصب الرفيع في الدولة وأسلم على يديه كثير من المصريين.

ولكن إذا كان التعاون من شأنه أن يؤدي إلى تخلي المسلم عن إسلامه كله أو بعضه فإن التعاليم الصوفية كانت تطرح النموذج الثاني: وهو نموذج يقضى بالانفصال الكلي عن المجتمع المناهض للإسلام واعتزاله، والمثل هنا أيضا مستمد من قصة النبي يوسف، حيث تروى القصة عنه أنه عندما أمره الملك أن يتوقف عن الدعوة إلى الإسلام خرج من خدمة الملك وذهب إلى مدينة أخرى يسيطر عليها المسلمون ليمارس فيها دعوته.

كان النموذج الأول يعمل في الفترات التي كانت السلطات الروسية لا تحرم المسلمين من العمل خلال النظام السياسي السائد، أما عندما كانت تضع القيود القانونية والعوائق

الإدارية على حركة المسلمين فإن تعاليم الدعاة كانت تحثُ على مقاومة الروس واتباع النموذج الثاني في العمل.

وبصفة عامة ، كانت الكتب الصوفية تنطوي على مقاومة الاحتلال الروسي والأرثوذكسية دين الروس ، بطريقة غير مباشرة ، من خلال القصص التي ترويها عن المسيح نفسه وعن يوسف وعن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

أما قصة يوسف عليه السلام -بصفة خاصة- فقد كانت قصة مطولة تنطوي على تفاصيل لم ترد في القرآن ولا كتاب العهد القديم ؛ كل تفصييلة منها كان لها دلالة درامية على عقيدة التوحيد وقيَمِها ؛ من ذلك أن امرأة العزيز استعانت بالأيقونات الوثنية للتغلب على عصيان يوسف ولكن هذه الأوثان لم تستجب لرغبتها فحطمتها في ثورة غضب لعدم جدواها.

أما أحداث السيرة النبوية فقد ملأت خيال التتار وعقولهم وأسرت قلوبهم وتعلموا منها أن دين محمد صلى الله عليه وسلم هو ميراث الأنبياء جميعاً ابتداءً من آدم عليه السلام ، وأن الإسلام هو خاتم الأديان ونبيه هو خاتم الأنبياء.

وكان أهل القرية يؤمنون بأن الإسلام هو الذي سينتصر في النهاية ، وأن العالم كله سوف يعتنق الإسلام عندما يعود المسيح إلى الأرض قبل قيام الساعة.

فمن هم الذين قاموا بالدعوة في ذلك المجتمع العجيب؟:

كانوا طائفة متميزة من الصوفية ، يمكن أن تطلق عليهم صفة "عَبَاد بالليل وفرسان بالنهار" ، تساعدهم فئة أخرى من العمال والنساء المتدربين ؛ يشكلون جميعاً فريق الدعاة والقادة للكرياشين في قرية إيشيفو .. كانوا يملكون المقدرة المالية للإنفاق على تكاليف الدعوة: من تسويق إنتاجهم في الحياكة وتطريز الملابس وبيعها في القرى والمدن المجاورة.

أما النساء فكانت لهن أدوار خاصة في تعليم الأطفال ؛ إذ كانت المرأة الداعية تفتح مدرسة قرآنية صغيرة لتعليم أطفال القرية ، وبذلك تتغلب على الرقابة الروسية التي لم تكن تهتم كثيراً بالنساء والأطفال ، ولكي لا يلفتون انتباه السلطة الروسية كان الأطفال يذهبون فرادى أو اثنين اثنين إلى المدرسة ، ويتجنبون السير في مجموعات كبيرة ، كما كانت فترة الدراسة اليومية قصيرة، يتعلم الأطفال فيها القرآن والأناشيد الدينية.

ولم يكن شيوخ الصوفية يستقرون في مكان واحد وإنما هم في ارتحال دائم فإذا حلّوا بالقرية عُقدت لهم ندوات مع مرديهم من العمال والنساء، وكانت هذه المناسبات من أهم شبكات الاتصال ونشر المعرفة الإسلامية .. تبدأ الندوة عادة يوم الجمعة في أول مايو أو آخر يونيو وتستمر لمدة أربعة إلى سبعة أسابيع، وكانت هذه الندوات وما يصاحبها من احتفالات شعبية تنتقل من قرية إلى قرية أخرى بنظام وجدول زمنية مخططة.

تستضيف القرية أعضاء الندوة فيجتمع فيها الشيوخ المعلمون والمريدون معاً ، وتقام المعارض التجارية لبيع السلع والكتب ، ويأتي شعراء الملاحم الشعبية فينشدون القصائد الدينية وقصص البطولات ، وفي بهجة الاحتفالات يختار الشبان التتار عرائسهم للزواج، ويلتقي فيها الكرياشين مع المسلمين.

إجراءات التحول إلى الإسلام:

كانت عودة الكرياشين إلى الإسلام في قرية إيشيفو تمثل النموذج أو النمط العام الذي يجرى في جميع قرى الكرياشين في منطقة الفولجا كلها.

وعندما بدأت الحركة الإسلامية في القرم نشط التتار الدراويش ومشايخ الصوفية في نشر الدعوة الإسلامية بمنطقة قازان ؛ فكانوا يذكرون المؤمنين بواجبهم في تحقيق إرادة الله على الأرض وهي الجهاد في سبيله ، ويؤكدون على أن النصر النهائي للإسلام، ويفيضون في ذكرى الهجرة النبوية عندما أجبر الكفار النبي على الهجرة من مكة فرحل إلى المدينة ؛ ومن ثم فإن الذين لا يقدرّون على الجهاد والمقاومة عليهم أن يهاجروا إلى تركيا . كانوا يتحدثون بمشاعر فياضة مبشرين بقرب ظهور المهدي المنتظر الذي سيملاً الأرض عدلاً ، وأن السلطان العثماني خليفة المسلمين سوف يوحد جميع الأراضي الإسلامية ويعيد الحكم الإسلامي إلى إمارات قازان المحتلة.

اتخذ الشيوخ من مدينة الهجرة التي لجأ إليها النبي يوسف نموذجاً لإقامة مجتمع مقصور على المؤمنين، ولكي يحددوا معالم هذا المجتمع كانوا يضعون علامات وإشارات، ويلتزمون بسلسلة من الإجراءات المجتمعية وفقاً لجدول زمني منظم .. من هذه الإجراءات منع الذين لم يعتنقوا الإسلام بعد من المشاركة في احتفالاتهم الجماعية وألعابهم الترفيهية التي يقيمونها في فصل الربيع، ويحرص القادة الدينيون على أن يقوم العائدون إلى الإسلام بتحطيم الأيقونات والأوثان في احتفال عام.

ثم يبدأون في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية: فيجمع رؤساء القرى الزكاة والصدقات من المؤمنين، ويجاهدون في سبيل دعوة المترددين لاعتناق الإسلام، ويقومون مقابر مستقلة لموتى المسلمين، ويحرمون تناول الخمر أو تداولها، ويحلقون رءوسهم على الطريقة الإسلامية التي تميزهم عن الكفار . ثم ينتخبون من بينهم إماماً لهم يقودهم في الصلاة ويحافظ على السجلات الهامة ، ويقضى في مشكلات الميراث ويعنى بتعليم أطفال المؤمنين . وحتى يتسنى لهم إنشاء مسجد كان الأهالي يقومون ببناء سقيفة لإقامة صلاة الجماعة.

بهذه الطريقة استطاع فلاحو قرية "إيشيفو" أن يقيموا مجتمعاً إسلامياً صغيراً انتظمت فيه العلاقات بين الناس بعضهم ببعض وفقاً لوعي الله الذي نزل به القرآن وجاءت به سنة رسوله.

تخلص هذا المجتمع الجديد تمامًا من آثار المجتمع الكرياشيني التقليدي القديم الذي كان يتحكم فيه مطران أرثوذكسي مفروض عليهم من قبل السلطة وليس من اختيارهم ، كان يمثل إلى جانب هذا عبئاً مالياً ، فأصبحوا – في الإسلام – ينتخبون إمامهم واحداً منهم، ويشعرون بأثر الزكاة والصدقات التي تجمع منهم في مشروعات وخدمات يلمسون أثرها في حياتهم، وهكذا نشأ في القرية نموذج مصغر للأمة المؤمنة ، وبدأت حركة الدعوة الإسلامية تمثيلاً حياً لما جاء في كتب الدعوة.

فماذا كانت ردود الفعل الروسية ..؟ هذا ما سنراه في حلقة أخرى بمشيئة الله.

myades34@gmail.com

(نشرت المقالة في ٢٤ يناير ٢٠١٧م بجريدة الشعب)